البنية الدلالية والإحالية لضميري الشأن والفصل ودورها في ترابط النص القرآني

نسرين عبدالحميد السلوقي ـ كلية التربية الزاوية ـ جامعة الزاوية

ملخص البحث:

تعتبر الإحالة من أهم وسائل الاتساق النّصي؛ حيث إنّها تحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النصّ، فتجعل أجزاءهُ متماسكة مشكلة بذلك كلامًا موحّداً وتعدّ هذه العلاقات الدَّلاليّة سمة مميزة للنَّص باعتباره وحدة دلالية.

ويقوم ضمير (الشأن، والفصل) بدور بارز في إحكام بنية النَّص القرآني وتماسكِهِ، وتعدُّ البنية الإحاليّة للضمائر الوسيلة الأكثر قوة في صنع التماسك الدّلالي للنص القرآني، وتجسيد وحدته العامة، بل إنَّها تعدُّ الوسيلة الأكثر قدرة على تحقيق التآلف ليس على مستوى الآيات، فحسب، بل على امتداد النصَّ بأكملهِ؛ وذلك لأنها تقرن بين الرّبط الوّصفي والرّبط المفهومي، أي بين ما هو لفظي، وما هو معنوي.

المقدّمة :

يعدّ الرّبط، أو الترابط بين المفردات اللُّغوية داخل التركيب النَّحوي، وبين أجزاء النصّ الواحد، أهمّ أسس النِّظام التَّركيبي للجملة، بل يستحيل فهم المعاني، والدّلالات الواردة في الكلام دون وجود هذا التَّرابط بين أجزائه، سواءً أكان هذا الكلام جملة، أو تركيباً نحويًّا واحداً، أم كان نصًّا من النُّصوص؛ حيث لابد أن يتوافر الترابط بين أجزاء النصّ ومفردات التَّركيب.

وقد تكون الرَّوابط لفظية، أو معنوية، ومن خلال هذا التّرابط الحادث بين التَّراكيب، والجمل، والفقرات تحدث المعاني التي يريد المتكلم، أو الكاتب أن يضيفها على كلامه، ويتكون من خلال ذلك النصّ سواءً كان هذا النّص شعراً أو نثرًا.

وجاءت الإحالة لتكون واحدة من الوسائل المهمة للربط؛ حيث استطاعت أن تمزج بين بعض الأنواع الأخرى من أدوات الرّبط فإنَّ تلك الأدوات تلعب دوراً أساسياً في تحقيق التَّماسك النَّصي، ولذا سيكون موضوع البحث "البنية الدلالية والإحالية لضمير الشأن، والفصل ودورها في ترابط النص القرآني".

معنى الإحالة:

يتضمن معنى الإحالة الناحيتين اللُّغوية والاصطلاحية كما يلي:

من الناحية اللُّغوية:

الإحالة مصدر الفعل "أحال والمعنى العام لهذا الفعل هو التغير، ونقل الشيء إلى الشيء الآخر"[1].

والتغير والتحول، ونقل الشيء إلى الآخر ليس بعيداً عن الاستخدام الدّلالي للإحالة النصية، فالتّغير والتحول، ونقل الشّيء من حالة إلى أخرى لا يتم إلا في ظل وجود علاقة قائمة بينهما تلك العلاقة هي التي سمحت بالتّغير.

أمّا من النّاحية الإصطلاحية:

فالإحالة مصطلح قديم، لكنّه جديد بمفهوم استخدامه، والتّوسع فيه، وفي تطبيقاته في علم اللغة النصي، ولهذا لم يتفق على تعريف نهائي له فاستحق أن نتوقف أمام مفهومه الإصطلاحي[2].

وقد عرّفها دي بوجراند بأنها: "العلاقة بين العبارات من جهة، وبين الأشياء، والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات"[3].

ويقول "جون لاينز في سياق حديثه عن المفهوم الدلالي التقليدي للإحالة "إنّ العلاقة بين الأسماء، والمسميّات هي علاقة إحالة: فالأسماء تحيل إلى المسميّات"[4].

وعرَّفها كلما ير بأنَّها: "العلاقة القائمة بين عنصر لغوي يطلق عليه: عنصر علاقة، وضمائر يطلق عليها صيغ إحالة[5] ويقدم تنير: تصوُّراً خاصاً للإحالة "فالإحالة عنده ربط دلالي إضافي لا يطابقه أي ربط تركيبي"[6].

وهناك مؤلفون عرب تناولوا موضوع الإحالة، ولم يقدِّموا تعريفاً واضحاً للإحالة منهم: الأزهر الزناد في كتابه نسيج النّص، ومحمد خطابي في كتابه لسانيّات النّص.

ويبرر سعيد بحيري إعراض بعض المؤلفين عن وضع تعريف للإحالة بقوله: "وكان لإعراضنا عن طرح تصورات مختلفة عن مفهوم الإحالة، وعناصرها عدة أسباب أهمها: تجنيب القارئ ما ينشأ عن تقديم وجهات نظر متباينة من خلط واضطراب، وغموض"[7].

إن هذا المبرر الّذي طرحه سعيد بحيري يبدو غير مقنع؛ لأن الباحث، أو القارئ لا يمكنه الاستغناء عن معرفة المفاهيم والمعاني قبل الخوض في أية دراسة فهي – بلا شك – منطلقة لبناء بحثه، أو لفهم ما يقرأ.

ويمكننا تعريف الإحالة بأنها علاقة معنويّة بين ألفاظ وأسماء معينّة وما تشير إليه من مسميات، أو أشياء – داخل النّص، أو خارجه – يدُّل عليه السِّياق أَوْ المقام عن طريق ألفاظ، وأدوات محددة كالضمير، واسم الإشارة... وتشير إلى مواقف سابقة، أو لاحقة في النص.

وتشير إلى أن اللُّغة تشتمل على نوعين من العناصر يمثلان قطبي الإحالة، وهما:

أ- العنصر الإشاري: يعرِّفه: الأزهر الزناد بقوله "كل مكوّن لا يحتاج في فهمه إلى مكوّن آخر يفسرّهُ"[8]، فقد يكون لفظا دالاً على حدث، أو ذات كإحالة ضمير المتكلِّم أنا على ذات صاحبه، وحينئذٍ يرتبط العنصر الإحالي بعنصر إشاري غير لغوي ممثلاً بذات المتكلم، أو موقع ما في الزمان.

ب- العنصر الإحالي يعرفه الأزهر الزناد بقوله: "هو كل مكون يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره"[9].

ومن المزايا المهمة للإحالة والتي ينبغي الإشارة إليها أنَّها قادرة على صنع جسور كبرى للتواصل بين أجزاء النّص المتباعدة والرّبط بينها ربطاً واضحاً وهذا ما يؤكد أهميّة الإحالة في الربط النّصي، ويشير (روبرت دي بوجراند) إلى أنّه ليس من المستحسن أن نجعل مسافة كبيرة بين اللَّفظ الكِنَائِي، وما يشترك معه في الإحالة[10].

فالإحالة – إذن – لا تخضع لقيود نحويّة، إلا أنها تخضع لقيد دلالي: وهو وجوب تطابق الخصائص الدّلاليّة بين العنصر المحيل، والعنصر المحال إليه[11].

فالرَّبط يمكن أن يكون نتيجة علاقة إحالية حين تنشأ علاقة إحاليّة بين جملتين مستقلتين، وحين تكون العلاقة بينهما ذات طبيعة دلالية غير تركيبيّة على الإطلاق، فالربط من خلالها يكون ضعيفاً، بل، ضئيلاً[12].

عناصر الإحالة:

تتوزع عناصر الإحالة كما يلي:

1- المتكلِّم.
2- اللَّفظ المحيل.
3- المحال إليه.
4- العلاقة بين اللَّفظ المحيل، والمحال إليه"[13].

أدوات الاتساق الإحالي:

وهي تلك الألفاظ التي نعتمد عليها لتحديد المحال إليه داخل النّص، أو خارجه، وقد أطلق عليه هاليدي أدوات لا نعتمد في فهمنا لها على معناها الخاص، بل إسنادها إلى شيء آخر(14).

وأطلق عليها روبرت دي بوجراند الألفاظ الكنائية(15)، ووضع لها سمات.

وأطلق الأزهر الزناد: عليها العناصر الإحالية في اللُّغة، وعدَّها من قبيل المعوِّضات، وأشار إلى أنها تأتي تعويضاً عن وحدات معجميّة يمكن أن نطلق عليها مصطلح العنصر الإشاري(16).

وتشمل كل ما يشير إلى ذات، أو موقع، أو زمن، وتنقسم العناصر الإحالية عنده إلى:

1- الضمائر. 2- أسماء الإشارة.

وهذه الأدوات تلعب دوراً أساسياً في تحقيق التّرابط النَّصي.

وهي، (الضّمائر) وبخاصة (ضمير الشّأن) (ضمير الفصل) بوصفهما أكثر وسائل الرّبط الإحالي شيوعاً وتأثيراً في ترابط النّص القرآني.

الضمائر:

الضمائر: جمع ضمير، والضمير: هو السِّر، والشّيء الَّذي تضمره في قلبك، والضمير، والمضمر بمعنى واحد، من أضمرت الشيء أخفيته(17).

والضّمير اسم جامد مبني، وبسبب بنائه لا يثنى، ولا يجمع، فلا تلحقه علامة التثنية، أو الجمع، وإنما يدُّل بذاته وصيغته على المفرد، أو المثنى، أو الجمع (والمذكر، والمؤنث)(18)، والضمائر في الأصل هي: الربط بين الأسماء، وقد رأى البعض أن الرَّابط من الضّمائر هو الضّمائر البارزة، فحسب ذلك أن الضّمير المستتر في نظرهم يعدُّ قرينة معنويّة تستنبط بالعقل، ولا يشير إليها لفظ(19).

والحقيقة أن الضمير يعتبر رابطاً من الرّوابط الأسمية سواء كان بارزاً، أم مستقراً؛ وذلك لأنه – وإن كان مستتراً يدرك بالعقل، ويستنبط من خلال المعنى – فإنَّه في بعض المواضع يأتي رابطاً للجملة التي يستتر فيها بالجملة التي قبلها(20)، نحو قوله تعالى: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى)(21).

فالضمير المستتر في (يَسْعَى) يربط الجملة بما قبلها. وتعدُّ ظاهر التّسلسل الضميري بوجه خاص شرطا من الشروط النّحويُة التركيبية الأساسية لتماسك النص، فأشكال التسلسل الضَّميري تلك هي الوسيلة الحاسمة لتشكيل النص، ومن ثم يعرف

النص بأنه نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض من خلال تسلسل ضميري، تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد، هو ما نطلق عليه مصطلح نص[22].

وإنَّ تعدد الإحالة يمكن تفسيره بقرينتين: إحداهما نحويّة، وهي عودة الضمير على العنصر الإشاري الأقرب، والثانية بلاغيّة تعتمد على لعبة الحقيقة والمجاز[23].

ومثال ذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[24].

فهناك ثلاثة احتمالات لما يعود عليه الضمير المنصوب في (يعرفونه): فإما أنه عائد على الرسول، وإن لم يسبق ذكر لضمير الغائب، لكنه عُلِمَ من الآيات السابقة وتكرَّر فيها: قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ)[25].

وقوله: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ)[26]، فالإثبات بضمير الغيبة، وهو على تقدير مضاف، أي يعرفون صدقه، وإما يعود إلى الحق في قوله السابق: ليكتمون الحق فيشمل رسالة الرسول وجميع ما جاء به، وإما أن يعود[27] إلى العلم في قوله: (مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ)[28].

ويتضح من هذه الاحتمالات أن الضمير يحيل إلى سابق مذكور صراحة، فإذا جعل الضمير محيلاً إلى الرسول، فقد جاء ظاهراً مرة واحدة في قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) ومستمراً في الآيات اللاحقة بضمير الخطاب المتصل، والضمير في هذه الحالة يحيل إلى عنصر فقط، وإذا كان محيلاً إلى الحق يصبح عنصراً محيلاً إلى خطاب، وهكذا تكون الضمائر محيلة إحالة مزدوجة[29].

مرجع الضمير "الإحالة" في القرآن الكريم:

لابُدَّ للضمير من مرجع يعود إليه، ويكون ملفوظاً به سابقاً، ومطابقاً به نحو قوله تعالى: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ)[30]، وقوله: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)[31]، وقوله: (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)[32]، فضمير الغائب في: ابنهُ، وربَّهُ، ويَدَهُ ويراها يعود على مرجع سابق له، ومتعلِّق بِهِ، ويطابقهُ، وهو على التوالي: نوح، وآدم، والضمير العائد على الكافر في الفعل (أخرج)، أو متضمناً له نحو قوله تعالى: (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[33]، فالضمير عائد على العدل المتضمن له "اعدلوا" وقوله تعالى: (وَإِذَا

حَضَـــرَ القِسْـــمَةَ أُوْلُوا القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـــاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً)[34]، فالضـمير في "منه" يشـير ضِـمناً إلى المقسـوم لدلالة القسـمة عليه، أي فارزقوهم من المقسوم.

أو متـأخراً لفظـاً لا رتبـة مطـابقـاً، نحو قولـه تعـالى: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِـــهِ خِيفَةً مُّوسَـــى)[35]، فالضـــمير في نفســـه يعود على مرجع متأخر لفظاً، لا رتبة، والعنصـــر الإشـاري هو: موسـى، وقوله تعالى: (وَلاَ يُسْـأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)[36]، فضـمير الغائبين في: ذنوبهم يعود على مرجع متأخر عنه، وهو: المجرمون.

وفي قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْـأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ)[37]، عاد الضـمير في: ذنبه على مرجع مذكور في الآية ولكنَّهُ متأخر عنه لفظاً، وهو: إنس، فأســهم ذلك في تحقيق الرّبط التركيبي والإحالي في الآيات. وقد يدُّل عليه السِّياق فيضـمر ثقة بفهم السّامع نحو قوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)[38].

ومن هنـا فـإنَّ الضَّـــمير لابدَّ له من متقدِّم يرجع إليه، تقدُّماً لفظياً، أو معنوياً، والتقدُّم اللَّفظي أن يذكر المُفسِّـر ذِكراً صـريحاً، وأعلم أنَّهُ إذا تقدَّم مما يصـلح للتفسـير شيئان فصاعداً فالمُفسِّر هو الأقرب لا غير، ويجوز مع القرينة أن يكون للأبعد[39].

ونشـــير هنا إلى أَنَّ عودة الضّـــمير تتأثر بالمعنى، حتّى إنَّه قد يؤثر في عودة الضّـــمير إلى كلمة السِّـــياق وتقدير مرجع هذا الضـــمير – بالطبع – يعود إلى المعنى ويلجأ النُّحاة المفسرون إلى تفسيرات نحويُة، وأخرى دلاليّة في تحديد مرجع الضمير، وقد تجبرهم تلك التفسـيرات الدلاليّة على اللُّجوء إلى ظروف خارج النّص، هي سـياق الحال فيحكمونها في المرجع[40].

ثانياً ـ البنية الإحاليّة لضمير الشأن :

ضـمير الشّـأن هو الضّمير الذي يتقدمه ما يعود عليه وَسُميَّ ضمير الشّأن لأنه يرمز للشـأن الذي سـيدور الكلام عنه، وهو ضـمير مبهم يكون في صـدر الجملة بعده تفسر دلالته وتوضح المراد منه ومعناه[41].

ويفسِّـــر الزمخشـــري إبهام الضـــمير في قوله تعالى: (... وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ...)[42].

يقول: هو ضمير الشأن ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره إخراجهم[43].

وفي هذه الآية نرى الزمخشرى يطبق شروط النُّحاة في تفسيره لهذا الضّمير، إذ فسره بلا حق، وهو إخراجهم الّذي ورد عقب الضّمير [هو] وبالتّالي فإنَّه مفسِّر بما يليه، وهذه الرُّؤية عند جمهور النُّحاة(44).

ويشكل ضمير الشأن بنية إحاليّة ذات وظيفة خاصة حرص النُّحاة على تأكيدها، وهم يتفقون أساساً في أنه مبهم، غائب مفرد يتصدر الجملة يفسره ما يليه، ويقصد به التعظيم والتضخيم، ولذا يطلق عليه: ضمير الجملة(45).

والسِّر في تقديم ضمير الشأن كما حدده الخطيب القزويني "أن السَّامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظراً لعقبي الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع في ذهنه فضل تمكن"(46).

ونبدأ بالسياقات التي يرد فيها تمهيداً للضمير، نحو قوله تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً...)(47).

بنية ضمير الشأن أَنَّه إحالة إلى عنصر إشاري عظيم، وهو: التحذير من قتل النفس بغير حق؛ لأن من فعل ذلك فكأنَّما قتل النَّاس جميعاً، في الوقت الَّذِي قام فيه ضمير الشأن بالرَّبط المعنوي بين قوله "كتبنا على بني إسرائيل" وقوله في الجملة التالية (من قتل نفساً بغير نفس...)، فبذلك تَحقق الترَّابط النَّصي(48).

وفي قوله تعالى: (فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ)(49).

يذهب الزَّمخشري إلى أن الضَّمير، إنَّما: هو ضمير الشأن والقصة يجيء مذكراً، ومؤنثاً، ويجوز أن يكون مبهما يفسره (الأبصار) وفي تعمي ضمير راجع إليه(50).

وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ).(الشعراء 197)

قال الزَّمخشرى: فقيل في يكن ضمير القصة و"آية أن يعلمه" جملة واقعة موقع الخبر ويجوز على هذا أن يكون (لهم آية) جملة الشأن و(أن يعلمه)(51).

نلاحظ في هذه الآيات الَّتي عالج فيها الزمخشري ضمير [الشأن] يعود إلى لاحق يفسرهُ، ويوضحه كما جاء في آية كل من: الحج، والشعراء، وهذه العودة إلى متأخر بالنسبة لضمير الشأن تمثلّ مجمل آراء النُّحاة بالنسبة لإحالة ضمير الشأن إلى متأخر (لاحق).

وقد يأتي ضمير الشأن في الجملة لشد الانتباه إلى ما يليه، رغبة في تعظيمه، وتفخيم شأنه في ذهن السَّامع؛ ليظلَّ في حالة تنبنه لما سيكشفه الضّمير من غموض، يقول الرَّضى: "والقصد بالإبهام ثم التّفسير تعظيم الأمر، وتفخيم الشأن، فعلى هذا لابد أن يكون مضمون الجملة المفسرة شيئاً عظيماً يعتنى به، فلا يقال مثلاً: هو الذباب يطير"[52]، ففي قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) هو ضمير الشأن مبتدأ وقوله: (اللَّهُ أَحَدٌ) هو الشأن الَّذي عبارة عن (مبتدأ وخبر) في موضع خبر لضمير هو[53]، فالضمير لم يتقدَّمه مذكور وتفسرِّه الجملة بعده.

ويذهب خليل عمايرة إلى أن لفظ الجلالة الله إنَّما ذُكِر بعد ضمير الشأن لتفسيره، وتأكيد دلالة التّعظيم، والتّفخيم، كما في قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)[54].

ويقول ابن هشام: "متى أمكن الحمل على غير ضمير الشأن، فلا ينبغي أن يحمل عليه"[55].

ومن ثَم ضَعُفَ قول الزّمخشري في قوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ)[56].

حيث اسم (إنَّ) في قوله: (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ) ضمير الشأن[57].

"والأولى كونه ضمير الشيطان؛ لأن ضمير الشأن لا يعطف عليه"[58].

إن توجيه ابن هشام هو الأقرب إلى المنطق؛ والعقل لأنه يتفق مع معنى الآية، فالضمير في: إنه يعود على الشيطان، والضمير المنفصل: هو توكيد لضمير الفاعل في: يراكم؛ ليحسن العطف عليه بـ:قُبَيْلِهِ، و:(قبيله) هم الجن والشيطان.

ثالثاً ـ البنية الإحالية لضمير الفصل :

حدَّد السُّيوطي (ت911) ضمير الفصل: "بأنَّه الواقع بلفظ المرفوع المنفصل مطابقاً ما قبله في الإفراد، والتّثنيه والجمع ولا يقع إلا بعد معرفة مبتدأ، أو منسوخ"[59]، ويقول أبو حيان الأندلسي (ت745هـ): وفائدة الفصل عند الجمهور التَّأكيد وقال السهيلي (ت581) الاختصاص مثل.

"زيد هو القائم أفاد اختصاصه بالقيام دون غيره[60] ويرى المستشرق الألماني برجستر آسر أن: ضمير الفصل يدخل لربط المبتدأ بخبره، وأن هذه الوسيلة في الربط قديمة شائعة في اللُّغات السَّامية، وربَّما تكون هذه الوسيلة أقدم من الرَّبط بالأفعال الَّتي معناها كان[61].

والغرض من ضـــمير الفصـــل يفيد التأكيد هو الأقرب إلى الواقع، والرّبط، والرَّفع اللَّبس والَّذِي يَهمُّنا – هنا – هو البُنْيَة الإحالية لهذا الضمير[62].

وكثيراً ما يلتبس أمر الضَّـــمير بين احتمالين: الفصـــل، أو الابتداء ففي قوله تعالى: (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[63] وقوله تعالى: (إِنِّي تَرَكْـــتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)[64] وقولـه تعـالى: (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ)[65]، وقولــه تعــالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ)[66] فيجوز اعتبـار الضـمائر المنفصـلة في الآيات السَّـابقة ضـمائر فصـل لا محل لها من الإعراب، وأنَّها جاءت لتوكيد الأسماء قبلها، ويجوز إعرابها مبتدآت، وما بعدها نعرب أخباراً لها.

إنَّ السِّـمة التي تميَّز ضـمير الفصـل في الأمثلة السَّـابقة هو إمكان حذف هذا الضّمير الواقع بين طرفي الإسناد في القرآن الكريم؛ لأن المسند لا يلتبس بالصِّفة إذا ما حذف، وعليه فإن علَّة وجودة منتفيَّة.

ومما يشـير إلى هذا الالتباس أن النُّحاة قد اشـترطوا لتعيين الفصـل، والابتداء شروطاً غير حاسمة للتفريق بينهما فاشترطوا في الفصل أن يقع بعد مبتدأ، وقبل خبر نحو قوله تعالى: (وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)[67].

قال الزمخشرى: "فائدته الدّلالة على أنّ ما بعده خبر لا صفة، والتَّوكيد إيجاب أنَّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره"[68].

ومنهم من اشـــترط وقوعه قبل المنصـــوبات نحو قوله تعالى: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)[69] وقد يكون المتقدِّم على الضـمير اسـمًا ظاهراً، أو ضـميراً نحو قوله تعالى: (وَلاَ يَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْـلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم)[70] يقول الزَّمخشري في تفسيرها: "ولا يحسبن (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) بخلهم هو خيراً لهم والَّذِي سوَّغَ حذفه دلالة يبخلون عليه"[71].

فقد أحال الضَّمير: هو في الآية السّابقة إلى اسم سابق مشتق من الفعل يبخلون، فالإحالة – إذن – إلى متقدِّم والضَّمير المنفصل عنصر إحالي تفسيره عنصر إشاري متقدِّم، وهو الاسم المشتق من الفعل.

يقول سـيبويه "واعلم أنَّ هو لا يحسـن أن تكون فصـلاً حتى يكون ما بعدها معرفة، أو ما أشبه بالمعرفة فلو قلت: كان زيد هو منطلقاً. كان قبيحا"[72].

إنَّ رأي سيبويه السَّابق فيه تكلف كبير، وإنَّ من الأيسر، والأقرب إلى الواقع أَنْ نعتبر الضَّمائر: هو، وهم، وأنا ضمائر فصل تفيد التَّخصيص والتَّوكيد لا محل لها من الإعراب، ويعرب ما بعدها حسب موقعه في الجملة، ففي مثل قوله تعالى: (وَكَلِمَةُ

اللَّهِ هِيَ العُلْيَا)[73] هي: ضمير فصل لا محل له من الإعراب وما قبلها مبتدأ، وما بعدها خبر.

وفي قوله تعالى: (كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)، هم ضمير فصل يفيد التَّوكيد، والتخصيص، والظالمين خبر كان، وهكذا.

أما في قوله تعالى: (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ)[74] فإن الظَّاهر إنَّ الضَّمير في إنَّه ضمير الشأن[75]، وهو في موضع الخبر، وضمير الشّأن لا يؤكد، ولا يصلح أن يكون فصلاً؛ للمخالفة في التكلُّم، والغيبة[76].

أما في قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)[77] ورد ضمير الفصل هو لإفادة الحصر، أي أن الله هو الذي أوجد الضَّحك والبكاء، وهو الخير والشّر، فالضَّمير عائد إلى رَبِّك.

وأيا كانت دلالة ضمير الفصل في الآيات السابقة وغيرها، فإنَّه، قد أسهم في تحقيق صلة معنوية بين طرفي الإسناد حيث يكون عنصراً محيلاً إلى الاسم السَّابق الَّذي يزيل الإبهام فيه من جهة، ثُمَّ يعتمد عليه الكلام التالي؛ لأنه يبنى عليه فيكون جسراً تركيبياً دلاليًا بين أجزاء الكلام، بل عاملاً قوياً على إزالة أي نوع من الإبهام لدى المخاطب حين يتكرَّر.

أهم نتائج البحث

إن المتأمل للإحالة بضمير، الفصل، والشَّأن يرى أنَّها الوسيلة الأكثر قوة في صنع التَّماسك الدَّلالي للنص القرآني وتجسيد وحدته العامة، وهي لا تقل دوراً وأهمية عن بقية الوسائل، مثل التِّكرار، والحذف ؛ بل إنَّها تعدُّ الوسيلة الأكثر قدرة على إيجاد التَّماسك، والترَّابط، وتحقيق الوحدة النَّصيّة؛ وذلك لأنها يقترن فيها الربط الوصفي بالربط المفهومي، أي بين ما هو لفظي، وما هو معنوي.

ولقد بدأ واضحاً الدَّور الَّذي قامت به الضَّمائر في إحكام بنية النَّص القرآني وتماسكه، فقد كانت الإحالة من خلالها متقدمة، ولاحقة عاملاً قوياً يسهم إلى جوار غيره من العوامل الأخرى في ربط أجزاء النص.

وقد خرجت من هذه الدراسة بعدة نتائج أهمها:

1- لم يقتصر دور الضمائر على الرَّبط بين الجمل والآيات، أو تحقيق التّرابط النَّصي على مستوى السُّوَرِ، فحسب بل كان لها – بالإضافة إلى ذلك – دور بارز في التفسير، وإزالة اللبس، والإبهام عن كثير من السِّياقات.

2- برز دور ضمير الشأن في توضيح المعنى، وتعظيم الاسم للعنصر الإشاري المعجمي الذَّي يحيل إليه وتفخيمه، مما أسهم في إضفاء نوع من الرَّهبة والتقديس على الجو العام للسياق، مما يسهم في إثارة انتباه المتلقي، ودافعيته، وتشويقه لمتابعة فهم النَّص.
3- أسهم ضمير الفصل بدور كبير في تحقيق الصلة المعنوية بين أجزاء الكلام حيث يكون عنصراً محيلاً إلى السابق، فيكون بذلك عاملاً قوياً في التأكيد والتخصيص.
4- ظهر الالتفات في القرآن الكريم كوسيلة مؤثرة في تحقيق التَّرابط على المستويين التَّركيبي والدَّلالي، بالإضافة إلى قيمته الواضحة في لفت الانتباه والتشويق.

لهوامش :

1- ينظر، لسان العرب، لابن منظور مادة (حول) د.و.ل.
2- الإحالة في نحو النص، أحمد عفيفي، ص526.
3- النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص172.
4- تحليل الخطاب، ج، ب براون، ص36.
5- دراسات لغوية تطبيقية، سعيد حسن بحيري، ص82.
6- المصدر السابق، ص82.
7- المصدر نفسه، ص92.
8- نسيج النص، الأزهر الزناد، ص114.
9- المصدر السابق، ص114.
10- ينظر، النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ص237.
11- ينظر، لسانيات النص، محمد خطابي، ص17.
12- نظرية التبعية في التحليل النحوي، ص273.
13- الإحالة في نحو النص، أحمد عفيفي، ص529.
14- ينظر، المصدر السابق، ص: 532.
15- النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ص320.
16- ينظر، نسيج النص، الأزهر الزناد، ص: 115-116.
17- ينظر، لسان العرب، لابن منظور، مادة ضمر، (ض ، م، ز).
18- ينظر، النحو الوافي، عباس حسن، 1/217-218.
19- ينظر، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مصطفي حميدة، ص196.
20- ينظر الإحالة في نحو النص، أحمد عفيفي، ص533.
21- سورة يس، الآية 20.
22- ينظر، نسيج النص، الأزهر الزناد، ص12.
23- ينظر، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، 15/6.
24- سورة البقرة، الآية: 146.

25- سورة البقرة، الآية: 143.
26- سورة البقرة، الآية: 144.
27- ينظر، تفسير التحرير والتنوير، د. طاهر بن عاشور، ج2، ص: 27-28.
28- سورة البقرة، الآية: 145.
29- ينظر لسانيات النص، محمد خطابي، ص175.
30- سورة هود، الآية: 42.
31- سورة طه، الآية: 121.
32- سورة النور، الآية: 40.
33- سورة المائدة، الآية: 08.
34- سورة النِّساء، الآية: 08.
35- سورة طه، الآية: 67.
36- سورة القصص، الآية: 78.
37- سورة الرّحمن، الآية: 39.
38- سورة الرّحمن، الآية: 26.
39- ينظر، شرح الرَّضي على الكافية، لابن الحاجب: 404/2.
40- ينظر: دور السِّياق في تقدير مرجع الضمير، محمد أحمد خضير، ص: 96، 102.
41- النحو الوافي، عباس حسن: 252/1.
42- سورة البقرة، الآية: 85.
43- الكشاف، للزمخشري، 187/3.
44- ينظر، همع الهوامع، للسيوطي، 66/1.
45- دراسات لغوية تطبيقية، سعيد حسن بحيري، ص109.
46- الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني، البيان، البديع، الخطيب القزويني، ص101.
47- سورة المائدة، الآية: 32.
48- ينظر تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 176/6.
49- سورة الحج، الآية 46، سورة شعراء، الآية 197.
50- الكشاف للزمخشري، 166/3.
51- ينظر، المصدر السابق، 127/3.
52- شرح الرضى على الكافية، لابن الحاجب، 465/2.
53- ينظر، الكشاف للزمخشري، 353/2.
54- أراء في ضمير العائد، خليل عمايرة، ص80.
55- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الانصاري، 542/5.
56- سورة الأعراف، الآية: 27.
57- الكشاف، للزمخشري، 436/2.
58- مغني اللبيب، لابن هشام، 542/5.
59- همع الهوامع للسيوطي، 237/1.
60- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، 959/2.
61- التطور النحوي للغة العربية، برجستر آستر، ص136.
62- ينظر آراء في الضمير العائد، خليل عمايرة، ص74.
63- سورة التوبة الآية: 40.
64- سورة يوسف الآية: 37.

65- سورة الحجر الآية: 50.
66- سورة الذاريات الآية: 58.
67- سورة البقرة الآية: 5.
68- الكشاف للزمخشرى، 46/1.
69- سورة الزخرف الآية: 86.
70- سورة آل عمران الآية: 180.
71- المصدر السابق، 666/1.
72- الكتاب لسيبويه، 392/2.
73- سورة الكهف الآية: 39.
74- سورة النمل الآية: 9.
75- ينظر، تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، 55/7.
76- ينظر، المصدر السابق، 56/7.
77- سورة النجم الآية: 43-44.